



(العنوان: السياسة الأمريكية و مسرح الشر)

(الكاتب: أونيس)

(ت.م: ٠٧-٠٣-٢٠٠٢)

(ت.هـ: ٢٣-١٢-١٤٢٢)

(جهة المصدر:)

(العدد: ١٤٢٣١)

(للمصحة: ١٦)

Adonis
3/7/2002
"Alhayat"

- ١ -

يبدو أن الحادي عشر من أيلول (سبتمبر) ١٠٠٢، لم يكن إلا مقدماتاً لمسرح يمكن، قياساً على مسرح القسوة لأرتو، أن نسميه مسرح الشر. مستلهماً في ذلك بودريار. السياسة الأمريكية تشير بهذا المسرح، والحرب ممارسة تمثيلية لتعظيمه كونيًا، كأن الحرب، كما تتوهم هذه السياسة هي الحل الأكثر سهولة لمشكلة الشر. لكن بما أن الحرب لا تقدر أن تتغلب على الشر لأنها هي نفسها شر، فإن الحرب الأمريكية ليست إلا نوعاً آخر من التأسيس لشقاء العالم. ولعلنا نجد ما يضيء ذلك في كلمة لولتر بينجامن تقول: الإنسانية التي كانت، مع هومبروس، موضوع تأملٍ لآلهة الأولمب، أصبحت الآن موضوع تأملٍ لنفسها. وصل اغترابها عن ذاتها حدًا يدفعها لي أن تعيش تدميرها الذاتي بوصفه حساسية جمالية من طرازٍ أول - وليست هذه إلا جمالية الشر. شهدنا كيف كُثِفَ المتنازع عن خشية المسرح، وسمعا جميعاً الصوت الذي خرج منذراً، وفتتح التمثيل: يا شعوب العالم، أنا ممثل الشعب الأمريكي، أعلن الحرب على الشر، وأطلب منكم جميعاً أن تخرطوا فيها - ممثلين الي جانبي. وإلا فأنتم، خارجاً، ضدي!

وفيما لا يزال العالم تحت وطأة الحيرة من هذا القرار ومن هذه المطالبة، يدبج ستون متفقاً أميركياً رسالة الي العالم، يمتحنون فيها القرار، ويطلبون بالانخراط في الحرب ومسرحها، مؤكدين على ضرورتها - قائلين: قد يحدث ان تكون الحرب ضرورة أخلاقية للرد على العنف والكرهية والأعدالة. وتلك هي الحالة، اليوم. هذه الرسالة بيان وطني - قومي بوصفها موقعة من ممثلين عن الاتجاهين السائدين في الولايات المتحدة: الديمقراطي، والمحافظ المعتدل. وهي كذلك بيان فكري بوصفها تمويغاً نظرياً، ودفاعاً ثقافياً، في كل ما يتصل بهذه الحرب، ويدور الفكر والمفكرين في المجتمع الأمريكي. (نشرت الترجمة الفرنسية الكاملة لهذه الرسالة في جريدة لوموند ٥١ شباط (فبراير) ٢٠٠٢. وبين الموقعين السكين فرانسيس فوكوياما، وصمويل هنتنغتون).

- ٢ -

في هذه الرسالة، آراء كثيرة تستلزم المناقشة. غير أنني أكتفي هنا بالوقوف عند ما بهمني بشكل مباشر وهو مفهوم الثقافة كما يتجلى فيها. وأوجزه في ثلاث نقاط:
الأولى: هي أن الرسالة تؤكد على أن القيم الأمريكية ليست خاصة بالشعب الأمريكي، وحده، وإنما هي قيم إنسانية كونية. فهناك مهادنة بين الحق الأمريكي والحق الإنساني الكوني. بين الخير الأمريكي والخير الإنساني الكوني.
بين العدل الأمريكي والعدل الإنساني الكوني.
الثانية، وتنتج مباشرة عن الأولى، هي الارتباط العضوي بين الفكر الشخصي الخاص، والعمل القومي العام - في بنية حرة، متعددة، دون إكراه الحزب الواحد. لكن في تكامل مع النظام القائم، من حيث أنه يمثل المجتمع، ويمثل العمل الوطني - القومي العام.
الثالثة، وتنتج مباشرة عن النقطتين السابقتين معاً، وهي الارتباط عضوياً بين السياسي والثقافي، أي

- ٣ -

في ترابط هذه النقاط ما يؤدي، في الممارسة العملية، و الرسالة نفسها شاهد على ذلك، الى تحويل الثقافة الى استراتيجية أمنية، بحيث تصبح جزءاً أساسياً من استراتيجية الدفاع عن المصالح الأمريكية، داخلاً وخارجاً، وبحيث يُنظر الى النتاج الثقافي الأمريكي، عندما تقتضي الحالة، بمنظار أمني.

كأننا هنا أمام مكارثية جديدة حرة ، لكن على مستوى كوني، هذه المرة، وعلى نحو أكثر تعقيداً، إضافة الى أن الاستراتيجية هي التي تتيج لـ النظام الأمريكي أن يعلن الحرب، من أجل صيانة القيم الأمريكية (الإنسانية، الكونية)، وتتيج له أن يقول: من ليس معنا فهو ضدنا ، ويتيج لأهل الفكر والثقافة أن يسوغوا هذه الحرب بـ ضرورات أخلاقية ، هكذا تصبح الثقافة الأمريكية نوعاً من الإفتاء حيث تقتضي الحاجة والمصلحة.

- ٤ -

لا أشرك، شخصياً، المفكرين الذين يشككون بكونية القيم الأمريكية وإنسانيتها، على الصعيد النظري الخالص. غير أن التجربة التاريخية، المسابقة والرائحة، ترينا بشكل واضح، عدم التطابق بين النظرية والممارسة ، في الرؤية الثقافية الأمريكية. ترينا أن الثقافة تابعة للسياسة، وأن القيم هي كذلك تابعة لها، وأن الثقافة ليست إلا وظيفة للظبية والتمويه في حالات كثيرة، وأنها صامتة ، أحياناً، عن أوضاع وبلدان تُحتقر فيها هذه القيم، ويهان فيها الإنسان ويُطرد يُشرّد تحت سمع السياسة الأمريكية وبصرها، وسمع المفكرين الأمريكيين وبصرهم. وفي هذا ما يوضح مسار الهيمنة الأمريكية على العالم باسم الدفاع عن القيم الإنسانية الكونية، وكيف أن الولايات المتحدة لا تدافع عن هذه القيم إلا فيما تدافع عن مصالحها هي.

- ٥ -

هناك ما هو أبعد خطراً، فالتجربة التاريخية، والرائحة، تثبت أن مجرد اللجوء الى القوة المسلحة بحجة إقامة العدل وعدم الاعتداء، إنما هو، عملياً، ظلم واعتداء. الإرهاب فردي - بمعنى انه يستحيل أن يكون شعبياً عاماً يمارسه كل فرد في الشعب. يستحيل أن يمارس الإرهاب شعب بكامله، أو بلاداً بكاملها. ولهذا لا يمكن أن تكون القوة المسلحة التي تحتل بلاداً وشعباً من أجل القضاء على إرهابه إلا قوة ظلم وبطش، ولا علاقة لها بالكونية والإنسانية.

إن العنف الذي يمارسه الإنسان لسبب أو آخر يخرج من دائرة الأخلاق الإنسانية. كل عَنفٍ توحش. من باب أولى أن تكون الحرب، لأية غاية، توحشاً، بوصفها عنفاً أعمى وجماعياً. فما من غاية، أيّاً كانت، تسوغ الوحشية. وعبرة الحرب العادلة التي يبشر بها أصحاب الرسالة ليست مذاعة للتعجب وحسب، وإنما هي تشوية للعقل والمنطق والحقيقة. لا يمكن ان يكون العنف عادلاً، لأن العطل لا يمكن أن يكون عنيفاً. كيف يمكن ان يكون القتل والهدم والتخريب والاحتلال وإهانة الكرامة البشرية (الكونية) عدلاً؟

- ٦ -

يعرف أصحاب هذه الرسالة أكثر من غيرهم أن لائحة الدول التي تمثل محور الشر ، إنما هي لائحة غير كاملة. أن هناك دولاً أخرى كثيرة لا تحترم القيم الأمريكية - القيم الإنسانية الكونية، وان كانت تحترم الآن المصالح الأمريكية. أن الولايات المتحدة استخدمت هي كذلك قوياً تنتمي الى الشر في حربها على ما كان يسميه رئيسها السابق ريفان بـ امبراطورية الشر ، قاصداً الاتحاد السوفياتي آنذاك. بن لادن، القاعدة، طالبان، وكانت، موضوعياً، في حربها هذه، حليفة قريبة ووفية للأصوليين، بشكل عام، تدريبهم، وتجييشهم، وتمويلهم. فبأي كونية ، أو بأية ثقافة ينقلب هؤلاء من أخيار (حلفاء)، الى أشرار (أعداء)؟

وهم يعرفون كذلك أن لبلادهم حلفاء داليمين آخرين لا يقيمون أي وزن أو أي اعتبار لقيم الكونية والإنسانية - سواء اتصلت بالكرامة البشرية التي هي حق بالظفرة ، وفقاً لتعبيرهم، أو بحقوق الإنسان، عموماً، أو بالحريات الديمقراطية. فكيف يسوغون هذا التحالف، أو لماذا لا يتدنون به؟ وكيف يدافع عن الخير نظام لا يمارس غير الشر؟ كيف لا يعرفون إذن أن شناعات كبرى يُنتظر أن ترتكب في الحرب على الإرهاب قد تفوق تلك التي ارتكبت في الحرب على الشيوعية؟

هكذا، إذن، سنتهك حقوقك ~~باعتبار~~ باسم الدفاع عن هذه الحقوة! ونوجه ~~للأشخاص~~ المصلحتين!

فلا نستطيع أخيراً أن نمال أصحاب هذه الرسالة : ما الخلاف، على مستوي البنية الجوهرية، بين الثقافة الأميركية ، في الممارسة، و الثقافة الأصولية ، سواء كانت الي اليمين أو الي اليسار ؟

أليست الضربات المباركة لعاصمة عالم الكفار وجهاً آخر، أو صيغة ثانية لحرب الخير علي الشر ؟ بتعبير آخر: الكلام في الثقافتين هو، جوهرياً، واحد. لكن، هناك فرق في الشكل والمظهر - فرق هائل: حرب الخير علي الشر تتعهدا وتسهر عليها حارسه القيم الإنسانية الكونية ، القوة الكبرى في العالم، بينما يتعهد الضربات المباركة ويسهر عليها مجرد دونكيشوت أقل من أن يكون أندلسياً!

في كل حال يظل هذا الفرق - الخلاف مسألة في الفقه الاستراتيجي لا تستعصي علي الحل. ومن يدري، فتل هذه أن تكون مسألة مستعصن فيها للخلاف!